العودة إلى البحر

قصة بقلم البرتو مورافيا

ترجمة أنور قريطي

ارض مستوية ، وقد انتشرت على مروجها الرحبة اقحوانات بيضاء غضة . اما المروج فقد حدها عند الافق حرش صنوبر بجدار طويل متصل من الاخضرار الصلب الجامد . وشقت السيارة طريقها ببطء ، كأنها تسير غصبا عنها ، مهتزة فوق الحفر في الطريق الترابية . استطاع لورنزو ان يلمح ، عبر لوح الزجاج امامه ، كتله حرش الصنوبر تتقدم ملاقية له ، كأنها تتحرك ، مزينة وغامضة ومعادية . كان لورنزو قد خطط لهذه النزهة كوسيلة لتسوية الامور مع زوجته ، اما الان ، فقد احس ، وهو يواجه صمتها المطبق ، بالجبن يستبد به ثانية . الا انه قال لحظة اقتربا من الصنوبرات : « ها قد وصلنا الى حرش الصنوبر » .

لم تحر زوجته جوابا ، فمد يده وعدل المرآة فوق الزجاج الامامي. وكان قد أمال المرآة نحوها ، حين انطلقا ، وامضى الوقت كله منهمكا بمراقبتها ، وقد جلست متصلبة ومنتصبة الجذع ، يدها التي ما زال القفاز عليها على الباب ، ومعطفها مطوي على ركبتيها ، وقميصها الكتاني الابيض مفتوح حتى صدرها ، وقد انتصب عنقها الدقيق من القميص مثل ساق نبتة رشيق . النمش والزغب الناعم فوق شفتيها القيا على وجهها الملوح وفمها الاحمر نقاب شهوانية غامضة . وكانت عيناها ، الصغيرتان السوداوان ، شاخصتين بعناء الى الامام ، وقد اضفى شعرها المنحني الى الاعلى فوق جبهتها سيماء عدائية وقاسية على هيئتها ككل . وفكر لورنزو : ان لها مسحة منهيئة القرود ، لا تظهر في تقاطيعها مثلما تتجلى في سيمائها الحزينة البريئة العاجزة ، مثل هيئة بعض القرود الصغار . فقد ارتدت كقرد مظهر الرزانة المغضبة وهو مظهر كان يعرف تمام المعرفة انها لا تقدر عليه .

حين اقتربا الان من حرش الصنوبر بدا له اقل كثافة من قبل ، بجذوعه الحمراء المائلة الى هذه الجهة او تلك وكأنها على وشك ان تسقط على بعضها . وتركت السيارة الطريق منحرفة الى بقعة من ارض جرداء ملساء ارتجت عليها الدواليب ارتجاجا هينا . كان الحرش مقفرا من الناس وكنت ترى هنا او هناك في ظل الاشجار كوخا مغلق الشبابيك . ثم تألق الحرش وابيض الهواء وارتعش : البحر .

كان بود لورنزو ان يعلن عن ظهور البحر كما سبق له ان اعلن عن الحرش ـ ولكن صمت زوجته بدا أشد رسوخا من ذي قبل ، ولربما لم تتمكن من كبح جماح رغبتها في تقريعه ـ رؤيته البحر جعلته يحس بفرح حقيقي ، وهكذا فقد ظل صامتا وتابع السير فوق التربة الجرداء . ثم وقفت السيارة ، وظلا للحظة جالسين بلا حراك في ظل رفراف السيارة الواطىء . ولم يكن بمقدورهما حتى الان ان يريا البحر ، وان اخذا يسمعانه ، بعد ان انطفأ المحرك ، بايقاعه المتميز . اخيرا اقترح عليها : « هل ننزل ؟ » .

فتحت زوجته الباب ثم اخرجت ساقيها وقد اعاق حركتها ضيق فستانها . وتبعها لورنزو مغلقا الباب . وعلى التو شعر بالريح البحرية عنيفة ، حارة ، صاخبة ، وهي تثير سحابات من الرمل والعجاج من الارض الوعرة .

« انزل الى البحر ؟ »

« نعم ، بالطبع . »

ومضيا عبر الساحة . كانت القنابل قد دمرت معظم المكان ، فكنت ترى هنا وهناك حفرا كبيرة في الرصيف الاسمنتي ، وبعض الاعمدة قائمة لا تزال ، واعمدة اخرى مرتمية على الارض وقد غطاها تدريجيا الرمل الناثر بألسنة طويلة وصلت حتى منتصف الساحة . وعندما نظرا باتجاه الشاطىء وجدا انه مصالب بتشبيكات الاسلاك الشائكة ، والريح تهب تحتها حافرة عنها الرمل . وامتدت اسلاك الفولاذ الشائكة الى مسافة بعيدة تلفها سحابة غبار شاحبة غاضبة .

ثم عثرا على طريق الى البحر محاط بقوائم من الجانبين عبر الاسلاك ، فترك لورنزو زوجته تسير امامه وتبعها هو مبقيا بينهما مسافة ، وذلك لتتسنى له مراقبتها على مهله ، كما سبق ان راقبها في مرآة السيارة من قبل .

بعد ان ابرم هذه الحيلة الحربية ، اخذ يفكر في انه ، ربما ، كان الجانب المحزن في نحسه ان تدلهه بزوجته جاء متأخرا وعلى غير انتظار ، منذ البداية لم يحبها ، اذ تزوجها على عجل وهو غارق في مشاغل مهنته السياسية . اما الان ، بعد ان انتهت ايام توفيقه الصاخبة الفارغة والتي بهرته سنين عديدة ، فقد وقع في حبها ، في وقت لم يعد لحبه أي فائدة لها . او ان نوعا من الشبق التفكيري ، بالاحرى ، التهب في دمه، نوع شبيه بالشبق المستحيي الاحمق عند الاولاد . وهو يسير خلفها الفى نفسه يراقبها باشتهاء حزين مكتئب ادهشه . كانت ممشوقة القامة ، نحيفة ، رشيقة ، « ولادية » ، وعندما نقلت ساقيها القويين ، الممتلئين بالقياس الى جذعها ، بخطوات غير متزنة على الرمل المشوس ، ذكرته بساقي مهر غر . لقد اولى لورنزو اهتماما خاصا لهاتين الساقين ، وقد ظهرت عليهما تحت الجورب الشفاف شعيرات لا تحصى ـ شعيرات طويلة ، سوداء ، بدت منبسطة وبلا حياة كأنما لصقت على الجلد لصقا . ولم تكن تنتفهن كما تفعل معظم النساء . ولما رفعت يدها لتسوى شعرها ، الذي بعثرته الريح ، اعتقد انه يتبين سواد ابطها تحت القميص الكتاني ، الامر الذي جعله فريسة ارتباك عظيم .

وصلا الى البحر ، والريح تدفع الى الشاطىء موجات ربيعية ، متطاولة ، رخيمة الصوت ، تتدحرج الواحدة منها على ظهر الاخرى . اما قلب البحر فكاد يكون هادئا تماما ، وقد امتدت عليه خطوط متعاقبة ، خضراء ممكرة ، وبنفسجية غامقة . وقف لورنزو مدة بجانب زوجته متطلعا الى الامواج ولمح موجة ، بعيدة كأبعد ما تراه العين ـ في الحقيقة لمحها وهي تولد . ثم تبعها وهي تنهض ، تتسلق ورك التي قبلها ، ثم تتجاوزها . ولحظة تباطأت وضلت طريقها في الجزر متلاشية عند قدمين وثبت نظرته كرة اخرى الى البحر منقية عن موجة ثانية . لم يعرف لماذا ، الا انه شعر بالرغبة تتملكه في ان تتغلب احدى تلك الكتل المائية العديدة المتكسرة على الشاطىء على خصومها الذين ردوها الى الخلف وعلى الجذب التراجعي المعوق ، ان تقذف بنفسها على الشاطىء ، متجاوزة له ولزوجته ، متسلقة الرمال ومكللة حواجز الاسلاك الشائكة بالزبد . كانت امنية لا جدوى منها وسرعان ما فهم سببه رغبته فيها . لقد اعتاد في الايام العاصفة ، وهو طفل ، ان يرقب حركة الامواج المتنوعة ، وبين الحين والاخر ، حينما تنتشر موجة كبيرة قوية على الشط واصلة حتى غرف الاستحمام ، كان يفكر مفعما بالطموح : «سوف اكون مثل تلك الموجة . » ولكنه الان هز رأسه بعنف ليطرد الذكرى . ثم سأل زوجته وهو يستدير اليها : « هل راق لك المنظر ؟ » واجابته بدون اكتراث : « البحر ؟ انت تعرف اني لا اراه للمرة الاولى. »

كان بود لورنزو ان يشرح لها احاسيسه ـ أجل ، ان يحدثها عن اوهام طفولته ، ولكن نوعا من الخوف اليائس منعه من الكلام . وشعر برغبة عارمة في ان يتخفف من همومه ، ان يتظاهر بخلو البال . فانحنى الى الارض ممسكا بحجر ليلقيه الى ابعد ما يستطيع ، مؤملا ان تقذف الحركة العنيفة بأله كما تقذف بالحجر . غير ان الحجر غشه : كان

كبيراً بحجم قبضته ولكنه من الخفان السامي المغطى بالثقوب ، فسقط قريبا منه ، وعام على ظهر موجة تم حط على الرمل عند قدميه . واستبد به الاحساس بالمرارة ، كأن ما حدث هو رد الحقيقة الصامت على كل آماله . لقد اشبهت آلامه حجر الخفان الذي لم يكن بمقدوره ان يطوح به بعيداً ، لانه سيرتد اليه مع ما يتجشأه البحر من قاذورات وامتعة سبق ان القيت فيه .

اقترب من زوجته واضعا ذراعه حولها ، راغبا ان يسيرا معا على شاطىء البحر ، والريح المعافية تهب عليها ، في العزلة الصاخبة للامواج المتكسرة على الشاطىء . ولكنها ، مرتعشة من المفاجأة ، ابعدته عنها بعناد :

ـ ما بك ؟

ـ الا تحبين ان نمشي قليلا ؟

ـ الجو عاصف جدا .

قال : « انا احب الريح . » ثم خطا بضع خطوات على الشط وحده ، شاعراً بأن تصرفه يائس واحمق ، كتصرف المجانين . وساهم في مضاعفة شعوره بالجنون صوت الامواج المتلاطمة والريح التي هبت في شعره وعينيه . وفكر ببرود : لقد طاش تفكيري تماما . ثم طفق يسير نحو كومة رمل صغيرة تجمعت على شيء ما مهجور وصدىء .

سمع زوجته تسأله غاضبة : « ماذا تفعل ؟ اين تذهب .. فان الالغام هناك ؟ »

فأجابها وهو يهز كتفيه : « وماذا تهمني الالغام ؟ » واحب ان يضيف : وحتى لو انفجرت علي ، ولكنه صمت من باب اللباقة . ثم استدار ليرى ما تفعله زوجته فوجد انها ما زالت تواجه البحر وقد ظهر عليها الضيق والتردد . وقالت له باحتقار جرحه وخيل اليه انه ظالم : « لا تمثل دور البطل . انت تعرف انك تريد ان تحيا . » فقفز راجعا اليها واخذ ذراعها قائلا : « عليك ان تصدقيني عندما اقول لك اني في هذه اللحظة لا ابالي بالموت على الاطلاق ، في الحقيقة سيسعدني ان اموت .. » ثم عصر ذراعها المدورة المتينة ، وقد اتعسه ان يلاحظ السهولة التي حول بها التماس الجسدي يأسه الى رغبة فيها وجعله غير مخلص رغما عنه . نظرت اليه شزرا قائلة : « دعني !! انها نفس الحكاية .. وعلى كل حال .. » ثم بعد فترة صمت « افعل ما بدا لك ولكني لن اتبعك : فأنا لا أجد أي رغبة في ان اموت . »

تركها لورنزو ميمما شطر الكومة الصغيرة وهو ممتلىء بالعزيمة . وعلى الطريق غاصت قدماه ، وامتلأ حذاؤه بالرمل . ولم يكن بينه وبين الكومة اكثر من خمسين ياردة ، فلما وصلها اكتشف انها صفيحة بترول فارغة ، فتتها البحر وملأتها الريح حتى ثلاثة ارباعها بالرمل . خلفها ، حتى ابعد ما تراه العين ، امتد الشاطىء ، تجتاحه الريح الشرهة ، وتقطعه تشبيكات الاسلاك الشائكة الدقيقة التي بدت في بياض الرمل الناعم مثل ندوب ملتئمة . تردد لحظة ، وقد بهرت عينيه صورة السهر القائمة على الماء ، ثم استدار .

لم تكن زوجته في محلها ، فتلمس طريقه خلال الممر الضيق للاسلاك الشائكة المفضي الى الساحة . كانت زوجته واقفة ازاء السيارة ، يد على الباب واليد الاخرى عند جبهتها تسوي شعرها . سألته : « ما الذي سنفعله الان ؟ »

« لنأكل » . قال لها ذلك بصوت مرح ، رغم انه شعر وقتها انه بالكاد يستطيع الكلام ، دعك من ان يكون مرحا .

« أين ؟ »

« نستطيع ان ندخل في حرش الصنوبر . » وبدون ان ينتظر جوابا اخذ سلة النزهة عن ظهر السيارة متوجها نحو الصنوبرات . وتبعته زوجته .

اجتازا الساحة متجهين نحو ما كان مرة المطعم المحلي . كنت ترى في الضوء الابيض المعتبر كوم خرائب نصف مقبورة ناهضة من الارض المهزوزة ـ شاحبة من الخارج وداخلها بلون سن منخورة . الدرج الاسمنتي المؤدي الى البهو الرئيسي ، والذي تعود الناس أن يأكلوا فيه مشرفين على البحر ، نهض درجة او درجتين ثم توقف فجأة على كومة مهوشة من قطع السقف والحديد الصدي المعوج والقرميد والتراب .

اما الغرف الاخرى داخل الحائط المهدم فكانت تتميز ما زالت من الخرائب المماثلة المكومة في عجينة مغبرة . دارا حول الانقاض ، وقال : « انت تذكرين اخر مرة كنا هنا ؟ »

« كلا . »

« منذ سنتين . وكانت الامور وقتها وقد اخذت تسوء ، ولكني لم ارغب في مواجهتها . كانت لك غلالة حول ثدييك واخرى دارت على خصرك مارة بين فخذيك . كنت سمراء غامقة ، وكان لك عمامة صغيرة على رأسك . » ثم تابع بصوت توتر على غير توقع « اما الان فاناً ادرك انك فاتنة ، ولكني وقتها لم يبد علي اني اراك . ما كنت افكر بشيء الا بالسياسة ، تاركا كل الحمقى الذين لحقونا يطاردونك الغرام .

سألته بخفاف : « وماذا تقصد ؟ »

« لا شيء » .

كان خلف المطعم مرجة اختلط فيها العشب القذر المسعت بالرمل ، وقد نمت عند نهايتها شجيرات كثيفة واشجار معوجة ، اغصانها كالايادي . وقد رمت القنابل بقطعة من بيانو المقهى الى وسط المرجة : بدت لوحة مفاتيح البيانو ، وليس عليها سوى بضع اصابع بيضاء وكتلة كبيرة من الخشب المهشم ، كأنها فك حيوان لا يحمل سوى بضع اسنان فاسدة . وانتشرت على العشب من كل الاطراف مطارق مكسرة ، وكذلك فقد قذف بجزء آخر من الآلة ، الهيكل ، على شعب شجرة ، وقد تدلت الاسلاك المعدنية منه والتفت مثل قرون استشعار متدلية من نبات متسلق خرافي .

بحث لورنزو عن بقعة مستورة بتخوف كثيف اعمى وكأنه لا ينوي ان يقوم بالحب وانما بالجريمة . وتبعته زوجته تاركة بينها وبينه مسافة ، واحس ان هيئتها تبدو بصورة متزايدة اكثر انزعاجا وعداء . كان الحرش مليئا ببقع مكشوفة صغيرة ومعشوشبة ، محوطة على غير نظام بالشجيرات والعليق . اخيراً اعتقد انه وجد ما يفتش عنه فقال « لنجلس هنا » ثم ارتمى على الارض .

ظلت واقفة للحظة تتلفت ، ثم نزلت على ساقيها بتمهل وتصلب واحتضار . وجلست بسرعة وقد انشمر فستانها عن ركبتيها . فتظاهر لورنزو بانه لا ينظر اليها واخذ يخرج الطعام من السلة . وجد صررا كثيرة ، صغيرة وكبيرة ، ملفوفة بعناية بورق ابيض رقيق من النوع المستعمل في المخازن العصرية . ووجد قنينة نبيذ .

« اكنت انت التي اعدت الصرر ؟ »

« لا . لقد طلبت من الخادمة ان تهيئها . »

نشر على العشب محرمة ، وشرع يصف فوقها البيض واللحم والجبن والفاكهة بعناية . ثم نزع الفلينة عن القنينة واعاد سدها .

« هل لك في بيضه ؟ »

« لا . »

« لحم ؟ »

« اعطني رغيفا صغيرا فيه شريحة لحم . »

فأخذ لورنزو احد الارغفة التي سبق ان شطرت ومرغ داخلها بالزبدة ، ووضع فيه شريحتي لحم وناوله لها . فقبلته منه بتعال وبدون ان تشكره واخذت تأكل على كره . فتناول لورنزو بيضة مسلوقة وقضم منها بشهية ثم ملأ فمه بالخبز الممرغ بالزبدة ، شاعراً بلون من الجوع الحزين الشبيه برغبته في زوجته . وفكر ان الجوع والشبق ترعرعا على يأسه ـ كأنه جثة بدون حياة او ارادة وقد نمت عليها رغباته كما ينمو الشعر على ذقون الموتى . أكل بيضة ، ثم ثانية ، ثم ثالثة ، وتردد ، ثم اكل بيضة رابعة . لقد لذ له ان يعض البياض اللدن ، وان يحس بالصفار الطري يتسحق تحت اسنانه . وظل يأكل متحمسا ، رافعا ، بين الحين والاخر ، القنينة عالياً منها جرعا كبيرة . بعد البيض اولى اهتمامه للحم . كان منه نوعان : نوع مشوي على شكل شرائح حمراء كبيرة ، والنوع الاخر قطع مقلية مع شقف الخبز . وتابع الاكل ، بدون ان يرفع بصره الى زوجته ، وقد بدأ يحس ، رغم فراغ روحه وكآبتها ، بالحيوية الملتهبة تدت في عروقه . وبدا له ان تلك الحيوية على ضوء يأسه ، نوع من الثروة الهازئة عديمة الجدوى ، مما اشعره بالتعاسة . واخيرا رفع عينيه وقدم لها القنينة بدون ان ينبس بكلمة .

كان الرغيف الصغير ما زال في يدها ـ وقد اكلت نصفه فقط . واخذ تهز برأسها .

« الا تأكلين ؟ »

« لست جائعة . »

انهى لورنزو اكله ، ثم جمع قشور البيض مع الفضلات الاخرى ، وصرها في ورقة قاذفا بها ابعد ما يستطيع ، ثم اعاد القنينة التي فرغ نصفها الى السلة . ولقد قام بتلك الحركات الصغيرة باصرار وتأن كأنه ينظم عقله وليس اشياء النزهة . اما زوجته التي أنهت الان رغيفها الصغير فقد شرعت تمسح وجهها بفرشاة البودرة متأملة نفسها في مرآة يد صغيرة ، وقالت :

« والان ؟ الا نذهب ؟ »

« الى أين ؟ »

« للبيت . »

« ولكن الوقت ما زال باكرا . »

وقالت بقسوة : « لقد شاهدت البحر ، ولقد تناولت غداءك . وانت لا تريد ان تنام هنا ، أليس كذلك ؟ »

راقبها لورنزو غير عارف ايشعر بالغضب ام بالخزي من عدائها المتصلب . ثم قال بصوت خافت : « اسمعي . عندي ما اقوله لك ؟ »

« تقوله لي ؟ ألم يكفني ما قلته لي حتى الان ؟ »

فتزحلق على العشب بجهد وجلس بجوارها : « اريد ان اعرف سبب استيائك . »

« لست مستاءة . ولكني لا افهم لماذا نستمر في الحياة الواحد منا مع الاخر . هذا كل شيء . »

« اما عدت تشعر به نحوي بأي حب ؟ »

« انا لم اشعر نحوك بأي حب ، والان اكثر من اي وقت مضى . »

فقال لورنزو مصرا : « ولكن في وقت ما ، كنت كلما أهديتك شيئا من المال ترمين بذراعيك على عنقي ، وتضميني وتقبليني مدعية انك تحبينني . »

فوافقته ، وقد ظهر عليها الضيق ، لانه ذكرها بجشعها الطفولي : « لقد كنت احب الهدايا بالطبع ، ولكن لم اكن احبك . »

« كان الامر كله تمثيل ، اذا ؟! »

وادرك لورنزو انها كانت تتكلم مخلصة ، اذ كان الامتنان عند نساء من نوعها يشبه الحب شبها عظيما : ولعله كان لون الحب الوحيد الذي يقدرن على الشعور به ، حقا .

قال : « ولكني .. » ثم اطرق « منذ اخذت الامور تسوء صرت اشعر نحوك للمرة الاولى ، كما ترين .. لا اعرف كيف اشرح لك .. »

وصرخت فيه باستهزاء : « بحق السموات، لا تحاول الشرح، اذا !»

« أليس بامكاني ان اعرف ما تأخذينه علي ؟ »

« عليك ؟ » واخذت تستشيط غضبا . « يكفي انني لا ارغب ان اكون زوجة نزيل سجون . »

« لم اقض في السجن اكثر من بضعة ايام ، وعلى كل حال ، فقد كان ذلك لاسباب سياسية . »

« هكذا تقول انت ، ولكن الاخرين يقولون انه لاسباب اخرى ... وانه ربما حبسوك مرة اخرى ، في أي وقت . »

وميز لورنزو اثر شك في صوتها ، وكأنها كانت تعيد شيئا سمعته وليس شيئا استنتجته بنفسها .

« انك تتكلمين في موضوع لا تعرفين عنه شيئا . اراهن انك لم تعرفي طيلة السنوات التي عشناها معا من كنت او ماذا اشتغلت . »

« لا تكن سخيفا ! »

« طيب ، قولي . »

« كنت ... » وترددت . « حسنا ، كنت احد رجال السلطة . »

« هذا لا يكفي . ماذا كان مركزي ؟ »

وقالت باحتقار : « وكيف اعرف . كل ما اعرفه ان الجميع اشاروا اليك على انك أحد افراد السلطة ، كنت تتهير دائما : في وقت تكون شيئا ، وفي وقت اخر تصبح شيئا اخر . كذلك كان لدي اشياء اخرى افكر فيها عدا عملك .

وقال لورنزو بتلطف : « أجل ، كان عندك رودلفو وماريو وجياني لتفكري بهم . »

وتظاهرت بأنها لم تسمع اسماء عشاقها ـ وكلهم صغيرون وسخيفون مثلها ـ فتابع لورنزو : « ولكنك تعرفين ، على الاقل ، ما الذي حدث منذ الوقت الذي كنت فيه موظفا . الا تعرفين ؟ »

وقالت له ، وهي ترفع كتفيها بنفاد صبر : « هكذا انت . انك تنظر الى الان كما لو كنت مغفلة . ولكن اذكى مما تظن . »

« لا يخالجني الشك في ذلك ، ابدا . ولكن ، قولي لي ما حدث ؟»

« وقعت الحرب . ثم قضي على الفاشيين . هذا ما حدث . هل ارتحت الان ؟ »

« عظيم . ولماذا ، في رأيك ، فقدت مركزي ؟ »

وقالت غير واثقة : « لان الذين وصلوا الى الحكم الان هم اعداء للفاشيين . »

« ومن هم اعداء الفاشيين ؟ »

رفعت عينيها هذه المرة الى السماء ، ثم زمت شفتيها ، ولم تقل شيئا . واستبد الغضب بلورنزو وهو يفكر في ان جهلا كهذا أسوأ بكثير من أي ادانة سهلة : لقد جعل حتى اخطاءه ، بلسه حسناته القليلة ، تسقط في فراغ . ولم يبق لحياته من اثر عظيم من الاثر الذي خلفته خطواته منذ قليل على رمل الشاطىء .

« وما كانت الفاشية ؟ »

نفس الصمت ، مرة اخرى . فامسكها لورنزو فجأة من ذراعها وراح يهزها : « اجيبي ، ايتها الشيطانة ! لم لا تجيبين ؟ »

وقالت بجفاء : « دعني ! انا لا اجيب لاني اعرف انك تريد ان تشوش تفكيري وتجعلني أغير ما اعتقده . لا اريد ان ابقى معك ، بعد الان . هذا كل ما في الامر . »

ولم يعد لورنزو يصغي اليها . لمسة ذراعها ايقظ فيه رغبته مرة اخرى . فنظر الى فستانها المشدود على ركبتيها وهي جالسة . وخيل اليه ان نعومة وحرارة وثقل لحمها تلتحم بالقماش . وعندها شعر بذهنه يتلبد وبالنفس ينحبس في صدره .

ولكنه قال ببطء : « الا تدركين انك تتركيني ، في الوقت الذي كان على امرأة غيرك ان تقف بجانبي ، ولاسباب لا تفهمينها جيدا ، لمجرد رغبة عابرة او شائعة صغيرة ؟ »

« انا ادرك ان كثيرا من نساء المجتمع ما عدن يدعونني الى منازلهن او يسلمن علي في الطريق . ولقد اخبرت امي بأني أريد ان ارجع اليها. هذا كل شيء ، وانا لا اريد ان ابقى معك بعد الان . » ونهضت .

تأملها لورنزو من فوق الى تحت . كانت تقف مشدودة القامة وقد نطق وجهها بالاحتقار . وبدا ساقاها في وضع غير مريح مع فستانها الضيق وكعبيها العاليين . وادرك أنه سيكون سهلا ان يرمي بها أرضا مقلما اظفار احتقارها له . ساقاها هذان ، وقد عرقلهما ضيق الفستان، كانا مثل شخصيتها التي عرقلها سخفها . واحس برغبة عارمة في ان يفقدها توازنها . فضربها بكل جسده ، ناطحا برأسه بين ساقيها . فوقعت على العشب . ارتمت على طولها صارخة وقد ارعشتها المفاجأة :

« دعني ! ما بك ؟ »

لم يجب لورنزو بل رمى بنفسه عليها ضاغطا جسدها تحت جسده، قائلا : « انا كما انا » ، مقربا شفتيه من شفتيها كأنما اراد ان يزقها ما يقوله كلمة ، كلمة « ولكنك لست افضل مني ، ابدا . انت فتاة سخيفة وفارغة وفاسدة . لم تبقي معي الا ما ناسبك ذلك » حسنا ، لم يعد البقاء معي يناسبك الان ، ولكنك ستبقين معي . شئت أم ابيت .

رأى نظرة الرعب في عينيها ثم قالت ، متوسلة تقريبا : «دعني ! »

وقال لورنزو بين اسنانه : « لن اتركك » . وكان يعرف ، لان تجاربه معها في الماضي اثبتت له ، أن زوجته ، رغم كل غضبها ، ستستلم في النهاية للعنف . دائما وفي لحظة معينة كان يسيطر عليها لون من الخور والرضى بالضلوع في الاثم مع القوة التي تعرضت لها ، وعندها تستسلم وتصبح ودودة ودا متألما ، كأن الصدود السابق ما كان اكثر من دلال متعمد . وكان هذا وجها اخر من وجوه سخفها ـ العجز عن السير بأي شعور ـ سواء بالكره ام بالود ـ حتى نهايته . وهكذا

فعندما بداءا يتعاركان ، هي تدافع عن نفسها ، وهو يحاول التغلب على دفاعها ، لمح لورونزو فجأة في عينيها البريق الخاثر المتألم المستسلم الذي عرفه حق المعرفة . في نفس اللحظة ، شعر بأن مقاومتها تقدمت. ثم قالت بصوت خافت : « قف . اقول لك . فلربما رآنا احد . » وكان ذلك بمثابة دعوة له لكي يستمر .

ولكنه شعر فجأة بالاشمئزاز من النصر الذي احرزه . اذ ان شيئا لن يتغير في النهاية ، وحتى لو استسلمت . سينهض ، وقد انطفأ الحب في قلبه ، عن الجسد الذي استمتع به . اما هي فستسدل عليها فستانها المشوش ، مشعثة الهندام ، وقد افعم نظرتها الاحتقار . ومع اول كلمة تنطق بها سيبدأ نزاعهما وقد ضاعف شعورهما بالاشمئزاز الانصال الآلي عديم المعنى . ولم يكن هذا ما قصد اليه حينما جاء بها في نزهة اليوم .

تركها بحركة فجائية ، ثم جر نفسه على العشب مبتعدا عنها . فتجلست وقد ظهر عليها الاستياءوالشعور بانها خدعت . وقالت حانقة: « الا تعرف أن العنف لا يؤدي بك الى نتيجة ؟ »

وشعر لورنزو بالرغبة في ان ينفجر ضاحكا ، مجيبا لها : انه ربما كان ، على العكس ، الطريقة الوحيدة التي افلحت معها . غير انه في نفس الوقت لم يسعه الا الاقرار بأن ما قالته صحيح . اذ كان العنف عاجزا ، حقا ، عن ان يؤدي به الى ما اراده .

وبرغم ذلك ، فقد قال لها بقسوة : « ولكن ذلك لا يغير حقيقة اني لو تابعت برهة اطول لفتحت ساقيك . »

وقالت له باشمئزاز صادق : « ما اعظم بذاءتك ! » ثم انتصبت واقفة واخذت تتسلق بمشقة الطريق بين الشجيرات منطلقة بتصميم نحو الساحة .

بقي لورنزو جالسا على الارض وعيناه على العشب . وعندما تدبر اجابات زوجته احس بأنه ، هو ، نفسه ، لم يعد يعرف ماذا فعل او اي وظيفة شغل طيلة تلك السنوات . وراح يفكر : انها على حق . لكأن كل شيء كان حلما فارغا ، نوبة هذيان ، وقد افقت منها الان . ولما ارتد الى الماضي يتأمله ادرك انه لم يعد يذكر منه شيئا ، اللهم الا وده الدائم، وده لمن هم دونه ولمن هم فوقه ولاصدقائه ولاعدائه وللغرباء ولزوجته . وخطر له ان الود قد آتى في النهاية ثمرة فاسدة ، فبعد كل الكلام والابتسام الكثير اصبح يشعر الان بأنه عاجز عن كليهما . وكأن لسانه قد يبس وكأن الالم قد تلبس زاويتي فمه . ولقد استطاعت في هذه الظروف حتى واحدة بليدة كزوجته ان تجد صيدها سهلا .

قفز وهو يسمع هدير سيارة على بعد ، ثم وقف برهة يصغي . وتملكه الشك فجأة فوثب واقفا وطفق يركض عبر حرش الصنوبر ، قافزا فوق شجيرات العوسج والارض غير المستوية ، مبحرا شطر الساحة . وعندما وصلها ، منقطع الانفاس ، الفاها خالية ، والهواء ما زال مغبرا من السيارة التي فرت بها زوجته .

وبدا له انها نهاية قيمة لليوم ، بل انه حتى لم يشعر بالانزعاج . فربما استطاع ان يرجع مجانا في شاحنة عسكرية . وعلى أسوأ الاحتمالات ، سيضطر ان يمشي ميلين الى الطريق الرئيسية ، حيث يمر عدد كبير من السيارات ، وسيسهل عليه ان يطلع الى احداها .

الا انه احس ، وقد شرع يسير على المر عبر حرش الصنوبر ، بنداء البحر . وبحنين للرجوع مرة اخرى الى الحركة المستمرة ابدا ، الى الصخب السرمدي ، قبل ان يعود الى المدينة . وعندها اراد ان يقوم بما لم يجبر على القيام به امامها ، ان يخلع حذاءه ويشمر بنطلونه ويمشي على حافة البحر في ماء الامواج الضحل المتأرجح ما بين مد وجزر .

وعى ايضا انه يرغب في السير على حافة البحر ليثبت لنفسه انه لم يبال بفرار زوجته . ولكنه ادرك ان ذلك لم يكن صحيحا ، فعندما جلس على الرمل ليخلع حذاءه لاحظ ان يديه ترتعشان .

نزع حذاءه وجواربه ، ثم شمر عن بنطلونه الى ما تحت الركبة ، واخذ يتلمس طريقه عبر الاسلاك الشائكة الى طرف الماء . وهكذا انطلق يمشي في مد الماء وجزره ، حذاؤه في يده ، مطأطىء الرأس ، منخفض النظر .

كانت عليه سيماء من يفكر ، الا انه في الحقيقة لم يفكر . بل كان يتأمل مسرورا الزبد يمر على قدميه ويرتفع حتى ساقيه ، مشكلا دوارا حول كاحليه ، ثم يتراجع مفضيا ساحبا الرمل تحت اقدامه ، مدغدغا رجليه كأنه كائن حي . اعجبه ، ايضا ، ان يطرق محدقا ، لا يرى سوى الماء ، عن شماله ويمينه ، معكرا ، متشئيا ، مبرقشا بدوائر الزبد البيضاء . كان البحر قرب الشاطىء ممتلئا بنبات الحلفاء الذي كان يرتمي مع كل موجة الى الشط ثم ينسحب معها حين ترتد الى البحر. كما كانت ثمة عصي صغيرة كالابنوس ، وحراشف بيضوية ملساء ، ونثارات خشبية صغيرة ، والاف الاشياء السوداء الصغيرة التي ابقتها المياه المعكرة المحملة بالرمل في حركة دائمة . وقد اعطت الهياكل الشفافة لسرطانات صغيرة متينة ، والعشب البحري الاخضر والجذور الصفراء لطحلبات ملونة لهذه الفضلات المتفحمة . وكلما ارتد الزبد كانت نباتات الحلفاء تتعلق بجشع على قدميه ، جاعلة على بياضهما المتألق نقشا أسود عربي الطراز . وهنا وهناك ، كانت تقوم بعض الكتل الاكثر ضخامة من حطام البحر فيما بين الموجة والموجة التي تليها ، في الضجة الحادة للماء المزبد . ورأى شيئا غير بعيد ، ليس له لون او شكل واضح ، جعله يظنه حيوانا ، ولكنه ما ان اقترب اليه ، مغالبا ضغط الماء ، حتى وجده ظلفا خشبيا لحذاء امرأة ، مصابة باعوجاج في القدمين . قطع صغيرة من حجر الجمشت الكريم انتشرت على اصبع القدم ، صانعة عليها ما يشبه خصلة كثيفة ، بينما كان القماش الاحمر ما زال يغطي الكعب . وفيما هو ينظر الى البقية مرت به موجة عالية ، لا زبد عليها ، غاسلة جسده حتى اسفل بطنه . فرمى الحذاء راجعا الى الشاطىء .

لم يعرف كم من الوقت مضى عليه وهو يمشي على رمل الشاطىء الناعم الرخو وقدماه غاطستان في المياه المصطخبة . الا انه نتيجة لاطراقه في الامواج ، التي تكسرت على ساقيه بدون انقطاع وجازته متجهة نحو الشاطىء اللامرئي ، شعر بنوع من الدوخة . فرفع عينيه الى البحر ، وخيل اليه برهة انه يراه طويل القامة ، ومستقيما كجدار سائل . ولم تعد السماء عند الافق اكثر من شريط بخار . ورأى طائرا بحريا يقطع جلدة الماء في تحليقة بعيدة خطرة احيت في ذهنه خاطرة عنف الرياح الثمل . ثم اشرف على السقوط ، دائخا ، تحت ثقل موجة صخبة ، وفجأة ، خيل اليه ان صخب الامواج غدا احد واقسى ، كأنما قد ضاعفه الامل في انهياره .

التفت الى الشاغىء ، وقد اوشك ان يتلبسه الخوف ، عازما على ان يخرج من الماء ويجلس لحظة على الرمل الناشف . مشى مسافة طويلة ، مخلفا وراءه الساحة والخرائب . وكان الرمل المتجمع هنا ، على هيئة كثبان او عوائق ، مصالبا بالاسلاك الشائكة وقرم الاشجار التي ظهرت كناس مدوا ايديهم وشبكوا ايديهم ليسدوا الطريق . ولفت انتباهه حاجز كثيف من العشب البحري وقد حفرت الرمال تحته بفعل الامواج . ركض قافزا حتى العشب البحري . ثم ارتكز باحدى يديه على الارض ووثب عليه .

سيل الاعشاب والرمل الذي حلق في الجو مجلجلا عمى للحظة عينيه المتطلعتين الى السماء وهو يرتد ساقطا في زوبعة الانفجار. وخيل اليه انه يسقط على أم رأسه في شلال ابدي الهدير . الا ان السكون والجمود اعقب ذلك . واستلقى على ظهره في الماء . كانت ضجة البحر وحركته لطيفة ونائية بصورة فذة تحت السماء التي عادت رؤيتها ممكنة. وتدحرج الماء من شعره الى اسفل. رأسه تحت وقدماه الى الاعلى . وتحرك جسده مع مرور موجة ، وابصر لطخة كبيرة حمراء تسرع نحو الشاطىء وعليها دوائر من الزبد وقاذورات سوداء . ثم اقبلت موجة اخرى وشدته الى اسفل واغلق عينيه .

حلب ـ اعزاز

انور قريطي